

الثروة والمعرفة

2017/5/24

جاء ميلاد الاقتصاد المعرفي في عالم عولمي لا تحده حدود سياسية أو جغرافية؛ الأمر الذي جعل احتياجاته المعرفية تفرض عليه أن يكون نُخبوياً إلى حد بعيد. وهذا جعل الفئات المعرفية تصبح أكثر الفئات إسهاماً في تطوير اقتصاد المعرفة بكل مكوناته التكنولوجية والإنتاجية والخدمية؛ كما جعلها أيضاً أكثر الفئات استفادة من عوائد المعرفة المادية والمعنوية. ولقد تبع ذلك تبلور العامل المعرفي الذي يشعر بحرية تامة لتوظيف ما لديه من علوم وخبرات وأفكار ومواهب في أي مكان من العالم، سعياً لتحقيق أهداف مادية ومهنية، بعيداً عن الاعتبارات الدينية والقومية والثقافية التقليدية. وهذا مكن العامل المعرفي من اختصار فكرة العقيدة في حدود العلم، وتوسعة مفهوم القومية ليصبح عالمي الأبعاد يسمح له بالانتماء لأي بلد يفتح أمامه مجال العمل والتفوق، واعتناق فكرة السوق الحر كفضاء يتيح له استثمار حصيلة ما لديه من معارف ومواهب. الأمر الذي جعل العامل المعرفي نوعاً فريداً من البشر، يجمع بين حياة التجوال البدوية التقليدية والإنتاج الصناعية والمعرفة التكنولوجية. وفيما يتنقل العامل المعرفي هذا بين شركة وأخرى، وبلد وآخر، يتواجد بصورة دائمة في مجتمعات افتراضية تربطه بأمثاله من المعرفيين بروابط مهنية ومصالحية.

إن من يملك من الناس ما يكفي من المعرفة بشقيها العلمي والثقافي، ما يعني أن من يملك من الناس تعليماً جيداً ويتبنى مواقف إيجابية من العمل والوقت والحياة، يكون لديه قدرة على وعي واقع حياته، وإدراك أهمية الفرص التي تسنح له بين الحين والآخر وكيفية استغلالها والحصول على المال، وتسلق السلم الاجتماعي. من ناحية أخرى، إن من يملك المال من الناس، أي من يحصل على ثروة سواء كان ذلك عن طريق الوراثة أو العمل، يكون لديه قدرة على الحصول على تعليم جيد، ما يتيح له فرصاً جديدة وجيدة للكسب المادي، والثراء وتعزيز موقعه الاجتماعي. في المقابل، من لا يملك تعليماً جيداً ولا مالا ليس باستطاعتهم أن يتنافسوا مع غيرهم ويتسلقوا الهرم الاجتماعي، ما يتركهم يعيشون في أماكن معزولة يسودها البؤس، ويسيطر عليها الفقر والجريمة أحياناً. مع ذلك هناك استثناءات لهذه القاعدة تأتي في العادة بسبب ما يتمتع به بعض الأشخاص من ذكاء وطموح وقدرة غير عادية على اغتنام الفرص التي تلوح بين الوقت والآخر.

ولمّا كان من يملك الثروة والمعرفة يجلس مُرتاحاً على قمة الهرم الاجتماعي وسفوحها المطلّة على عالم الخيال لا يفكر في شيء سوى كيفية تنمية ثرواته والتفوق على زملائه وجيرانه، فإن من الصعب عليه أن يرى من يجلس عند قاعدة الهرم من البشر، لأن ظلال القصور وغابات الاسمنت التي تغمر معظم المدن تحجبهم عنه؛ الأمر الذي جعل قدرة الثري هذا على الإحساس بما يحس به الفقراء شبه معدومة. وهذا يعني أنه ليس من المتوقع أن يشهد المستقبل تجزئة المجتمعات المعرفية إلى فقراء وأثرياء فقط، وإنما أيضاً إلى جهلة ومتعلمين. التعليم الجيد يقوم اليوم بتمكين المتعلمين من الحصول على وظائف مجزية، والعيش أحراراً حياة ترف ومتعة وأمل، والاستحواذ على المزيد من المال كل يوم. وفي المقابل، يقوم الجهل بجرمان الجهلاء من إمكانية الحصول على ما

يحتاجون إليه من فرص عمل تمكنهم من العيش حياة كريمة وتضمن لهم مستقبلا آمنا؛ وفيما يحرمهم هذا الحال من تسلق الهرم الاجتماعي، يحكم عليهم بالعيش غالبا حياة فقر وبؤس وحرمان.

ان كون العلاقة بين الثروة والمعرفة تتصف بكونها جدلية تقوم على التأثير المتبادل، يجعل من الصعب على الفقير أن يحصل على تعليم جيد يمكنه من الحصول على وظيفة جيدة وتكوين بعض الثروة، فيما يجعل من السهل على الثري أن يحصل على تعليم ممتاز يؤهله للحصول على فرص عمل جيدة وتكوين المزيد من الثروة. من ناحية ثانية، إن من طبيعة الثروة أن تمكن صاحبها من الاستحواذ على مصادر القوة، فيما تمكن القوة صاحبها من التمتع بالمزيد من الحرية والتأثير في اتجاهات التغيير في المجتمع بما يخدم مصالحه. في المقابل، يتصف الفقراء بكونهم ضعيفي القوة، وفي غياب القوة يتقلص فضاء الحرية أمامهم، ويصعب عليهم تغيير الواقع بما يخدم مصالحهم. وعلى سبيل المثال، يملك أغنى 62 شخصا في العالم ما يزيد عن نصف الثروة في العالم، فيما يملك الأثرى 1% من سكان العالم أكثر مما يملك البقية التي تشكل 99% من سكان العالم.

إلى جانب ذلك تشير الاحصاءات والمعلومات في أمريكا إلى أن فجوات الدخل والثروة بين الأثرياء والفقراء بلغت أبعادا غير مسبوقة، وأنها تقوم اليوم بالتنسب في محور المجتمع من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. في عام 1946، كان الشخص الذي يولد في عائلة فقيرة يتمتع بفرصة 50% لتسلك السلم الاجتماعي إلى الطبقة الوسطى، والتخلص من الفقر، لكن هذه النسبة تراجعت إلى نحو 40% في عام 1980، ووصلت إلى 33% في عام 2015، وما تزال في تراجع. أما مجلة فورشن فتقول: مع ان العمال في الوقت الراهن أكثر تعليما وكفاءة إنتاجية من آبائهم، إلا أنهم يتراجعون أكثر فأكثر خلف جيل آبائهم في معظم المقاييس الاقتصادية؛ فأكثر من نصف الأمريكيين يمرون بتجربة الفقر مرة واحدة على الاقل في حياتهم قبل الوصول إلى سن الستين.

إن نظرة سريعة الى عالم اليوم تكشف لنا بوضوح بالغ أنه لا يوجد مجتمع معرفي يعاني من الفقر، ولا يوجد مجتمع ثري يعاني من الجهل، فيما لا يوجد مجتمع جاهل غير فقير، ولا يوجد مجتمع فقير غير جاهل. الفقر يقود في معظم الحالات إلى الجهل، واستمرار الجهل يكرس حالات الفقر، فيما يقود الثراء في كل الحالات تقريبا إلى المزيد من المعرفة، والمعرفة تسهم بدورها في تكريس الثراء. ومع الثراء تأتي أسباب القوة والنفوذ والهيمنة، فيما يأتي مع الجهل عوامل الفقر والضعف والخنوع.